الشَّيخ الخضريُّ (١)

تحوَّل الكاتب إلى كتابٍ ، ورجع المفكِّر إلى فكره ، وأصبحَ مَنْ كان يدارس النَّاس فإذا هو درسٌ يُذكر ، أو يُنسى ، وتناول التَّاريخ عالماً من علمائه ، فجعله نبأً من أنبائه ، وكان يبنيه فوضعه في بنائه ، وقيل : مات الشَّيخ الخضريُّ !

آهِ لو يرجع إنسانٌ واحدٌ من طريق الموت الَّتي أوَّلها هذه النُّقطة الصَّغيرة المسمَّاة بالكرة الأرضيَّة ، وآخرها حيث تجد كلمة « الآخرة » بلا معنى ، لا محدودٌ ولا مظنونٌ ! وآه لو استطعنا أن نتكلَّم عن الميِّت كأنَّه حيٌّ بيننا ! ونحن كثيراً ما نتكلَّم عن الحيِّ كأنَّه مات من زمنٍ ! إنِّي لأكتب هذه الكلمات وكأنِّي أنظر إلى وجه أبي رحمه الله ، وأشهد ذلك السَّمت العجيب ، وذلك الوقار الَّذي يغمر النَّفس هيبةً ، وجلالاً ، وأستروِح ذلك الحبَّ الَّذي هو أحد الطُّرق الثَّلاث المنتهية من الأرض إلى السَّماء ، ومن المخلوق إلى الخالق ، والمبتدئة من السَّماء إلى الأرض ، ومن الخالق إلى المخلوق : طريق الأمِّ ، وطريق الأب ، وطريق الإنسانيَّة ، أكتب وكأنَّ يداً من وراء المادَّة تمسح على قلبي ، فأجد ثقلةً ، وفترةً ، وأستشعر حنيناً ، وشوقاً ، وأحسُّ هذا القلب ينازعني إلى قومٍ ذهبوا بلا رجعةٍ ، وفارقوا بلا وداعٍ ؛ وغابوا عنَّا بلا خبرٍ ، دخلوا إلى أنفسنا ، ولا تحويهم ، وخرجوا منها ، ولا تخلوا منهم ، فما دخلوا ، ولا خرجوا ، وهذه هي الحيرة الَّتي يتركها الميِّت العزيز للحيِّ المتفجِّع ؛ كيما يعرف بأمواته ما هو الموت ؟ !

* * *

كنَّا منذ بضع وثلاثين سنةً في مدينة المنصورة ، وكان أبي يومئذٍ كبير قضاة الشَّرع في ذلك الإقليم ، فإنِّي لألعب ذات يومٍ في بهو دارنا ؛ إذ طُرق الباب ، فذهبت أفتح ، فإذا أنا بشيخٍ لم يبلغ سنَّ العمامة(٢) ولم أميِّز من هيئته : أهو طالب

---

(١) المقتطف ، مايو ، سنة (١٩٢٧) . (س) .

(٢) كناية عن الحداثة ، وأنَّه شيخٌ بالمنظر لا بالسِّنِّ . (ع) .

علمٍ أو هو عالمٌ ؟ فكان حدثاً ، لكنَّه يتَّسم بسمة الجدِّ ، ورأيته لا تموج به الجبَّة كالعلماء ؛ غير أنَّها لا تمجُّه كالطَّلبة ، وكان في يده مجلَّدٌ ضخمٌ ، لو نطق ؛ لقال له : دعني لمن هو أسنُّ منك ، فما قدَّرته يزن عشرين مجلداً من مثله ، ونظر إليَّ نظرةً كأنِّي لا أزال أراها في عينه إلى السَّاعة ، فسلَّمت عليه ، فقال : أين الشَّيخ ؟ ـ يعني : الوالد ـ قلت : خرج آنفاً . قال : فادفع إليه هذا الكتاب ؛ وقل له : جاء به الخضريُّ .

ثمَّ أغلقت الباب ، وانتحيت جانباً ، وفتحت المجلَّد ، فإذا هو جزءٌ من التَّفسير الكبير للفخر الرَّازي ، كان قد استعاره من مكتبتنا ؛ وعرفت الشَّيخ من يومئذٍ ؛ وكان أستاذاً للعربيَّة في مدرسة الصَّنائع ، يضع كتاب النَّحو ، والصَّرف مع المطرقة ، والمنشار ، والقدُّوم ، فيذهب شيءٌ في شيءٍ ، وكأنَّه لا يعلم شيئاً ، وقلَّما كنَّا نذكره في مدرستنا ؛ إذ كان لنا شيخٌ فحلٌ ثقةٌ من رجال الأزهر ؛ غير أنَّ الخضريَّ كان له موضعٌ في كلِّ مجلسٍ ؛ وكان يداخل قوماً من الخاصَّة يعنون بالمسائل الإسلاميَّة ، وفلسفتها ، وتقريبها من العامَّة ، والدَّهماء ، وبإشارة من بعض هؤلاء وضع أوَّل كتبه : « نور اليقين في سيرة سيِّد المرسلين » ! ويكاد هذا الاسم يدلُّ على وزن الأستاذ في أوَّل عهده ، وأنَّه لا يزال وراء السَّجعة الآتية من القرون الأخيرة ، لم يمضِ على وجهٍ ، ولم يُعرف بمذهبٍ .

* * *

إنَّ الَّذي يريد أن يقول قولاً صحيحاً في هذا الفقيه ، العالم ، المؤرِّخ ، الأديب ، المربِّي يجب أن يرجع بتيَّاره إلى منبعه ؛ ليعرف مبلغ انبعاثه ، وقوَّة جَريته ومدَّ عبابه ، فما كان الخضريُّ شيئاً قبل أن يتعلَّق بمدار ذلك النَّجم الإنسانيِّ العظيم ؛ الَّذي أهدته السَّماء إلى الأرض ، وسمِّي في أسمائها : « محمد عبده » لقد أخرجته دار العلوم ، كما أخرجت الكثيرين ، ولكنَّ دار علومه الكبرى كانت أخلاق الأستاذ الإمام ، وشمائله ، وآرائه ، وبلاغته ، وهمَّة نفسه إلا أنَّه لا بدَّ من رجلٍ واحدٍ يكون هو الواحد ؛ الَّذي يبدأ منه العدد في كلِّ عصرٍ ، وأنت فكيف تأمَّلت الخضري ؛ فاعلم : أنَّك بإزاء معنىً من معاني الشَّيخ محمَّد عبده ، على فرقٍ ما بين النَّفسين ، بل أنت من الخضري كأنَّك ترى الشَّيخ سارياً في مظهرٍ من مظاهر الزَّمن .

كان يحضر دروس الشَّيخ ، ويختلف إلى ناديه ، ويناقله بعض الرَّأي ، ويعارض معه بعض الكتب ؛ الَّتي كان يُرجع إلى الشَّيخ في تصحيحها ، أو الإشراف على طبعها ، فنفذ الشَّيخ إلى نفسه ، ووجد السَّبيل إلى الاستقرار فيها ، فهو من بعدُ حريصٌ على وقته ، مجدٌّ في عمله ، دائبٌ على طريقه ، آخذٌ بالأخلاق الفاضلة ، مصلحٌ ، مُربٌّ ، غيورٌ ، وكلُّ ذلك في سمتٍ ، وهيبةٍ ، وجزالة رأيٍ ، وشرف همَّةٍ ، وإخلاصٍ حقَّ الإخلاص ، وما أرى فوضى عصرنا هذا ، وانحطاطه ، وإسفافه ، وسخافة قولهم : جديدٌ ، وقديمٌ؛ وجريءٌ ، ورجعيٌّ ، وحرٌّ ، وجامدٌ ـ إلا من خلاء العصر ، وفراغه من النَّفس الكبيرة ، وحاجته إلى إمامٍ عظيمٍ ، ومتى أصبحنا نضرب في دائرةٍ لا مركز لها ، فهي المربَّع ، وهي المستطيل ، وهي كلُّ شكلٍ إلا أنَّ تكون الدائرة ، والَّذين رأوا طاغور الشَّاعر الهنديَّ المتصوِّف حين نزل بمصر ، ورأوا سحره ، وتحويله كلَّ جديدٍ مدَّة أيَّامٍ إلى قديمٍ ، وإخراسه هذه الألسنة عن نقده ، ومعارضته ، وعن معاندة الحقِّ طيشاً ، ونزقاً ، وضلالاً ، وتجديداً . . يستطيعون أن يدركوا ما أومأنا إليه ؛ ويتبيَّنوا السِّرَّ فيما نحن فيه ، ويتمثَّلوا ما كان للشَّيخ محمد عبده في عصره بل في خلق عصره .

* * *

وانتهى الخضريُّ إلى مدرسة القضاء الشَّرعيِّ ، فألَّف كتابه في الأصول ، اختصر فيه ، وهذَّب ، وقارب ، فهو كتابٌ في هذا العلم ، لا كتاب هذا العلم ، وأساتذة الأصول قومٌ آخرون ، ولو أنت منهم مثل الشَّيخ الرَّافعي الكبير ؛ لرأيت البحر الَّذي يذهب في ساحله نصف طول الأرض ، وقد بعث الخضري على ذلك : أنَّ جماعةً يومئذٍ كان منها صديقنا المرحوم حفني ناصف ، والشَّيخ المهدي ، وغيرهما اجتمعوا على إبداع نهضةٍ في التَّأليف ، فذهب ثلاثة منهم بحصَّة الأدب ، وفرغ الخضري للأصول ، أخبرني بذلك حفني بك ـ رحمه الله ـ ثمَّ لمَّا اختار القائمون على الجامعة المصريَّة القديمة صديقنا العلامة المؤرِّخ جورج زيدان لدرس التَّاريخ الإسلاميِّ فيها ؛ طار الخبر في الأمَّة بأنَّهم اختاروا القنبلة . . . وشعر النَّاس بمعنى الهدم قبل أن ينهدم شيءٌ ، فاضطرَّت الجامعة إلى أن تنحِّيه ، وعهدت في الدَّرس إلى الأستاذ الخضريِّ فألقى دروسه الَّتي جمعها في كتابه (تاريخ الأمم الإسلاميَّة) وقال في مقدِّمة هذا الكتاب : « أرجو أن أكون قد وُفِّقت لتذليل صعوبةٍ كبرى ، وهي صعوبة استفادة التَّاريخ العربيِّ من كتبه » نقول : وعلى أنَّ الشَّيخ

أحسن في كتابه ، وجاء بمادَّةٍ غزيرةٍ من فكره ، ورأيه ، وبسط ، واختصر ، وباعد ، وقرَّب ، فإنَّ كلمته هذه إمَّا أن تكون أكبر من التَّاريخ ، أو أكبر من كتابه .

وردَّ في السَّنة الماضية على كتاب الشِّعر الجاهليِّ للدُّكتور طه حسين ، وكان ردُّه خطاباً أراد أن يحاضر به طلبة الجامعة ؛ لأنَّه أستاذ أستاذهم ، فكأنَّه أراد جعل أستاذهم هذا تلميذاً معهم ، وأبت عليه الجامعة ما أراد ، ولعلَّها فطنت إلى هذا الغرض ؛ ولمَّا علم أنِّي شرعت في طبع ردِّي على الدُّكتور طه[1] كلَّمني في استلحاق مقاله ، وجعله ذيلاً في الكتاب . وقدَّرناه يومئذٍ نحو خمسين صفحةً أو دونها ، وقد سألته أن ينفي منه ما كان في مقادير الرَّصاص ، ويقتصر على ما هو في وزن القنابل ، فقال : « كلُّه قنابلُ » ! ثمَّ اتَّسع كتابي ، وجاوز مقداره إلى الضِّعف ، فوسَّع هو ردَّه ، وزاد فيه ، وطبعه في قريبٍ من ضِعْفه على حدةٍ .

دع كتابه المشهور (مهذَّب الأغاني) ، فهذا لا يقال : إنَّ الشَّيخ ألَّفه ، بل ألَّفته خمس عشرة سنةً ؛ وأظنُّ كلَّ ذلك لا يُذكر في جنب الكتاب ؛ الَّذي كان يعمل فيه أخيراً ، وهو كتاب « الأدب المصريُّ » أخبرني أنَّه في جزءين ، ودعاني إلى داره لأرى (المكتبة الخضريَّة) ؛ ولأطَّلع على هذا الكتاب ، فوعدته ، ولم يُقدَّر لي ، وقد حدَّثني : أنَّه معنيٌّ أشدَّ العناية باستجماع الفروق الَّتي يمتاز بها الأدب المصريُّ عن الأدب الحجازيِّ ، والشَّاميِّ ، والعراقيِّ ، والأندلسيِّ ، وأنَّه أصاب من ذلك أشياء متميِّزةً منذ الدَّولة الطُّولونيَّة ، يحقُّ لمصر أن تقول فيها : هذا أدبي ؛ وكان يكتم خبر هذا الكتاب ، حتَّى إنَّ صديقنا الأستاذ حافظ بك عوض صاحب جريدة « كوكب الشَّرق » اقترح عليه أن يكتب فصلاً في الشُّعراء المصريِّين ، وأدبهم يعقده لكتاب حفلة تكريم شوقي بك ، ثمَّ لقيه بعد ذلك ، فقال له الشَّيخ : إنَّ البحث سائرٌ على أحسن وجوهِه ! .

* * *

كان الخضريُّ يفرح للقائي ، ويهَشُّ لي ، وكنت أتبيَّن في وجهه أشعَّة روحِه الصَّافية ، ولعلَّه كان يرى بي في نفسه ذلك الشَّيخ الَّذي أعطاني المجلَّد ، كما كنت أرى به في نفسي ذلك التِّلميذ ؛ الَّذي أخذ المجلَّد منه ! على أنَّ مرجع ذلك في الحقِّ إلى سعة صدره ، وفسحة رأيه ، وبسطة ذرعه ، وسموِّ أدبه ، وإنصافه ؛ فلا

(١) المعركة تحت راية القرآن . (س) .

يحقِد ، ولا يحسُد ، ولا يتجاوز قدْره ، ولا ينزل بأحدٍ عن قدْره ، ولا يدَّعي ما لا يُحسِن ؛ وقد عرف قُرَّاء المقتطف مثلاً من أخلاقه هذه ، أو أكثرها حين انتقده صديقنا الأستاذ عبد الرحيم بن محمود ، وتناول الجزء الأول من كتابه (مهذَّب الأغاني) وراح يتقلقل[1] له ، كجلمود صخرةٍ . . . فوسعه الشَّيخ ، وعني به ، وردَّ عليه في المقتطف ، ونعته بالأستاذ الجهبذ[2] ، وانتصف منه[3] ، وأنصفه معاً . ولقد اقترحتُ عليه مَرَّةً أن يضع كتاباً في حكمة التَّشريع الإسلاميِّ ، وفلسفته ، فقال لي : « مُشْ قدُّه » يعني : أنَّ العمل أكبر منه ، ولكن هذا نبَّهه إلى وضع كتابه في : تاريخ التَّشريع الإسلاميِّ .

ولمَّا أصدرت الجزء الأوَّل من (تاريخ آداب العرب) في سنة ١٩١١ م ، لم أهده إلى الشَّيخ ، فاشتراه ، وقرأه ، ثمَّ لقيتُه ، وسألته رأيه فيه ، فقال : (جدّاً كويس) فكان تقديم (جدّاً) تقريظاً ، و(كويس) تقريظاً آخر ؛ وهو يقول هذا على حين كان بعض إخوانه الشُّيوخ يكاد يموت غمّاً بهذا الكتاب ، وما كتب عنه ، وعلى حين كلَّمني بعضهم مرَّتين في ترك هذا العمل ، ونفض يدي منه ؛ لأنَّه ـ زعم ـ عملٌ شاقٌّ بلا فائدةٍ .

وقد زرت الأستاذ الخضريَّ في وزارة المعارف في السَّنة الماضية ؛ فبعد أن جلستُ إلى جانبه ؛ نهض مرَّةً ثانيةً ، وجعل يثبتني بقوَّة في الكرسيِّ ، كأنَّه لم يطمئنَّ بعد إلى أنِّي جلست ، ثمَّ فاض بكلامٍ كثيرٍ ، فكان فيما قال : « أنا الآن أعيش في غير زمني ! » وكأنَّما كان ينعي إليَّ نفسه بهذه الكلمة من حيث لا يدري ، ولا أدري ؛ وقال لي : إنَّه يجلس إلى مكتبه في كلِّ يوم ستَّ ساعاتٍ يقرأ ، أو يؤلِّف ، أو ينسخ ؛ لأنَّ كلَّ كتبه المخطوطة هو ناقلها ، وناسخها ، ومصحِّحها ، وأنَّه يتلو كلَّ يومٍ أربعة أجزاءٍ من القرآن الكريم ، قال : ولا يعتريه البرد ، ولا مرضٌ من أمراضه ؛ لما اعتاد من رياضة صدره بهذه التِّلاوة ، وقال : إنَّ كلَّ ما هو فيه إنَّما هو من بركة القرآن .

* * *

---

(١) « يتقلقل » : يتحرَّك .

(٢) « الجهبذ » : النَّقَّاد الخبير بغوامض الأمور .

(٣) « انتصف منه » : أخذ حقَّه منه كاملاً .

ولنمسك عند هذا الحدِّ ، فإنَّ الذِّكرى غمزاً[١] على القلب ؛ وبالجملة فقد كان ـ رحمه الله ـ عالماً كالكتَّاب ، وكاتباً كالعلماء ؛ فهو من هؤلاء ، وأولئك يلفُّ[٢] الطَّبقتين ، وهو وحده منزلةٌ بين المنزلتين ؛ وبذلك تميَّز ؛ وظهر ، فإنَّه في إحدى الجهتين عقلٌ جريءٌ ، تمدُّه روايةٌ واسعةٌ في علومٍ مختلفةٍ ، فتراه يبعث من عقله الحياة إلى الماضي حتَّى كأنَّه لم يمضِ ، وهو في الجهة الأخرى علمٌ مستفيضٌ لا يقف عند حدِّ الصَّحيفة ، أو الكتاب ، بل لا يزال يلتمس له عقلاً يخرجه ، ويتصرَّف به ، حتَّى يكبر عن أن يكون قديماً بحتاً ، فينتظم الحاضر إلى ماضيه ، ويطلقهما إطلاقاً واحداً . لم يكن الشَّيخ جديداً إلا بالقديم ، ولا قديماً إلا بالجديد؛ فإنَّنا لا نعرف قديماً محضاً ، ولا جديداً صِرْفاً ، ولا نقيم وزن أحدهما إلا بوزنٍ من الآخر ؛ إذا أردنا بهما سنَّة الحياة ، وأنت لن تجد حيّاً منقطعاً ممَّا وراءه ، بل أنت ترى الطَّبيعة قيَّدت كلَّ حيٍّ جديدٍ إلى أصلين من القديم ، لا أصلٍ واحدٍ ، هما أبواه ، فمنهما يأتي ، ومنهما يستمدُّ ، وهما أبداً فيه ؛ وإن كان على حدةٍ ؛ وبعد : فلو جاريتُ السَّخافة العصريَّة المشهورة ؛ لقلت : إنَّ المذهب القديم قد انهدَّ ركنٌ من أركانه ، ونقص قنطار كتبٍ من ميزانه ؛ ولكنَّ هذه السَّخافة في رأيي كما ترى من جماعةٍ ائتلَوْا[٣] أن يطفئوا نجماً في السَّماء ؛ لأنَّه قديم ، فاتَّفقوا على ذلك ، وأجمعوه بينهم ، وفرغوا من أمره ، وأقبل بعضهم على بعضٍ يتساءلون : كيف يهيِّئون العربات ، والمضخَّات الَّتي تحمل إلى السَّماء بضعة أبحرٍ ليصبُّوها على النَّجم .

* * *

---

(١) « غمزاً » : الغمز : العَصْر ، والكبس باليد .

(٢) « يلف » : يضمُّ ، ويجمع .

(٣) « ائتلوا » : أقسموا .